الأمل في الشعر الأندلسي في عهد بني الأحمر
(الشاعر و الذات)

الباحثة: أطياف صافي نعمة

أ. م. د. خالد عبد الكاظم عذاري

جامعة البصرة- كلية التربية للعلوم الإنسانية- قسم اللغة العربية

ملخص البحث:

يقوم هذا البحث على ثنائية (الشاعر – الذات) والذات الشاعرة تكون باعثة على الأمل والتفاؤل وذلك لأنها جزء مهمّ من تكوينها، فالنصّ الشعري نتاج شخصية الشاعر ويعكس طابعه الذاتي من انفعالات وأحاسيس سواء أكانت إيجابيّة تتمثّل بالأمل أم سلبية تتمثّل باليأس، ولهذا جاءت أهمية النصوص الشعرية التي وقف عليها البحث لشعراء عهد بني الأحمر من صلتهم بذواتهم فنتج من ذلك علاقة جدليّة وهي (الذّات – الأمل).

الكلمات المفتاحية: الذات، الأمل، اليأس، التفاؤل، انفعالات حسية .

Hope in the Andalusian Poetry during Beni Al Ahmar Era
(The Poet and Self)

Researcher :Atiaf Safi Nima

Asst. Prof. Dr. Khalid Abd Al Kadhum Athari

Dept. of Arabic language , College of Education for Human Sciences,
University of Basrah

Abstract:

The present research deals with the dichotomy of (the poet and self). The poetic self is the creator of hope and optimism since it is an important part of in the formation of this self. Thud, the poetic text is only the poet's production that reflects his subjective character such as irritations and emotions whether these are positive, when representing hope, or negative standing for hopelessness. Accordingly, the importance of this research lies in choice of the era of Beni Al Ahmar and their connection to the selves resulting in the discussion of the dichotomy (hope and self).

Key words: self, hope, hopelessness, optimism, emotions .

المقدمة

الأمل هو عبارة عن مشاعر وجدانية سارة يغلب عليها التفاؤل وحبّ الحياة، إذ من المستحيل أن تستمر الحياة من دون أمل ولا يوجد إنسان يخلو من الآمال فلكل إنسان آمال وطموحات تدفعه إلى الاستمرار والتعلّق بخيوط الحياة الرفيعة، ولهذا كان الأمل من الصفات الظاهرة في الأدب الأندلسي، فهو يتردد بين طيّاته وينتشر بين أجوائه، إذ امتلأت ذوات شعراء عهد بني الأحمر بهذه النزعة الوجدانية التي تدفعهم إلى رؤية كلّ شيء جميلاً في الحياة.

ـ الشاعر والذات

نستطيع أن نعرف الذات الشاعرة بأنّها ((حقيقة الشاعر، وهويته الشخصيّة، وما به يكون الشّاعر ذاته أي شاعراً بعينه، وليس أيّ شاعر، أي مقومات وجوده الواقعي أو الموضوعيّ، بوصفه إنساناً متميزاً أو موهوباً، أو بوصفه كائناً اجتماعيّاً تنهض فيه إمكانية التفرّد)) [١].

فالنصّ الشعريّ انعكاس لخبرات وتجارب ذاتية يعيشها الشاعر، فيتأثر فيها وينفعل بها ويدفعه ذلك إلى التعبير عنها شعراً بعواطف مرهفة وإحساس صادق.

والذات الشاعرة لا تحقّق فاعليّتها إلّا ((من خلال حضور الآخر الإنسانيّ، أو واقعة، في عالم الذّات الإبداعيّ حضوراً يؤكد قيام هذه التجربة في وعي الذات))[٢].

وهذا يقودنا إلى الحديث عن الأمل الذي تبعثه الذات في نفس الشعراء الأندلسيين في عهد بني الأحمر، فالأمل هو إحساس ذاتيّ ونزعة وجدانية بالدرجة الأولى، وقد جاء الأمل عندهم في شكل صورٍ متعدّدة، ومنها: مظاهر الطبيعة ورياضها، فمن الشعراء من لجأ إليها معبّراً عن حالةٍ شعوريّة تتوقد في أغوار النّفس البشريّة، ومنهم من عبر عن تجربته الذاتية في ديار الغربة وأمله بالعودة إلى وطنه، ومنهم من استهل الموروث العربيّ القديم، فقد عانت الأندلس في تلك المدّة من حكم بني الأحمر من اشتداد هجمات النصارى عليها، وهذا ما دفع الشّاعر الأندلسيّ إلى العودة لمنابع دينه وتراثه في شبه الجزيرة العربيّة ولا سيما المواضع النجديّة والحجازيّة فقد كان لهذه الأماكن أهمّية خاصة ((في فكره وفلسفته اليومية وإبداعاته المتنوّعة، فلا مفرّ إلّا اللجوء إلى الله – سبحانه – في كلّ صغيرة وكبيرة، شاردة وواردة تمرّ في حياة البشر، فهو – عزّ وجلّ – الملتجأ الوحيد والمنقذ المضمون، ولا سيما في أمّة تعالت عليها الخطوب ودارت بها الدوائر كالأمّة المسلمة في الأندلس))[٣].

والشعراء الأندلسيون عندما يستهلّون هذا التراث ويستحضرونه فإنّهم يفتخرون به فخراً ويعتزون به اعتزازاً، وهذا يدلّ على تشبثهم بالماضي وحبّهم له، فهم يرون أنّ جذورهم القديمة تبعث فيهم الأمل والحياة، فهي زينة لحاضرهم المليء بالصّراعات وهي ملجأهم الذي لاذوا به حين اشتدّت عليهم الخطوب.

ولا شكّ أنّ شاعر عهد بني الأحمر أُعجب بتراثه المجيد الذي جعله يقتبس من نوره ويوظفه بأسلوبه الأدبي والفكريّ محاولاً ترسيخ ذاته وإثباتها بطريقة لم ينتهجها السابقون من قبله، وذلك كلّه برهان واضح البيان على ثقافة بني الأحمر الأدبيّة والفكريّة، فهو عندما ((يتوجّه إلى معطيات موروثه الأدبي، فإنه لا يعمد إلى الإفادة الجامدة التي تدخل في باب التكرار والتقليد، وإنّما يهدف إلى صوغ تلك المعطيات بما يثري عمله الجديد ويجعله صالحاً للتعبير عن قضاياه المعاصرة))[٤].

ويعدّ الشاعر ابن خاتمة الأنصاريّ(ت٧٧٠هـ) من الشعراء الذين عُرِفُوا باستلهام الماضي واستحضار الأماكن المشرقية كنجد والحجاز وغيرهما، ومن الأمثلة على ذلك قوله متشوقاً إلى تلك الدّيار متأملاً زيارتها[٥]:

تَهُبُّ نُسَيماتُ الصَّبا من رُبا نَجْدِ ... فَيَنْفَحْنَ عن طِيبٍ ويَعْبقْنَ عَنْ نَدِّ
وما ذاكَ إلّا أنَّهُنَّ يَجُلنَ في ... مَعاهِدنا بين الأُثَيْلاتِ والرَّنْدِ
هُناكَ الثَّرى يُربي عَلى المسكِ طِيبُهُ ... ودَوحاتُهُ تُزْري عَلى العَنْبرِ الوَرْدِ
معاهدُ نَهواها وتَهوى لِقاءَنا ... بها قَدْ مَضى حُكْمُ العَفافِ على الودِّ
...
ألا ليتَ شعري والمُنى غايةُ الهَوى ... أَأُبصِرُ نَجْداً أم أَحُلُّ رُبا نَجْدِ
وهَلْ أنْقَعَنْ من ماءِ ظَمْياءَ غُلَّةً ... على كَبِدٍ لم يَبْقَ مِنْها سِوى الوَجدِ
وهل أنْزِلَنْ من حَيِّها جادَهُ الحَيا ... منازِلَ قد جَلَّتْ مَنازِلُها عِنْدي

عندما يقرأ المتلقّي هذه الأبيات يعتقد في بادئ الأمر بأنها أبيات غزلية قالها الشاعر متغزلاً بمحبوبته التي صرّح باسمها في البيت السادس، فقد اطلق عليها اسم (ظمياء)، ولكن التعمّق في قراءة هذه الأبيات يأخذنا إلى عالم آخر أبعد من الغزل، إذ أوحى اسم محبوبته المستعار (ظمياء) بظمأ الشاعر وحنينه إلى نجد ((بحيث اتخذ منه رمزاً فنّيّاً استوعب حنينه وأشواقه تارة ومعاناته وأزماته النفسية التي أطرتها الأزمات السياسية في الأندلس ولا سيما في العهدين الأخيرين اللذين اتسما بالاضطراب وعدم الاستقرار تارة أخرى. وليس أدلّ على ذلك من إيحاءات الشاعر وتلميحاته التي أشارت إلى الواقع الأندلسي مصحوبة بما كان يعتمل في نفسه من نار الغربة والحنين إلى الديار المشرقيّة))[٦].

وبهذا نجد ابن خاتمة انتقل بالمعنى من الغزل الى الشعر الغنائيّ الذي يعبّر عن ذاته ويكشف عن آماله وأحلامه بالذهاب إلى نجد وزيارة بيت الله الحرام، فقد جعل الشاعر من ذكره لتلك المرابع و المعاهد المحمدية التي يحنّ إلى لقائها نفثات ذاتية تبعث الأمل والأمنيات لديه إذ إنَّ ((الحنين إلى المشرق يمثّل جانباً كبيراً من أماني شعراء الأندلس منذ أن استوطن العرب تلك البلاد))(٧).

وقد كثر هذا الاتجاه أيضاً عند الشاعر ابن زمرك(ت٧٩٧هــ)، ومن ذلك قوله(٨):

يا من يَحِنُّ إلى نَجْدٍ وناديها — غرناطةٌ قد ثَوَتْ نَجْدٌ بواديها

...

إنَّ الحِجَازَ مغانيهِ بأندلُسٍ — ألفاظُها طابقتْ منها معانيها

فتلكَ نَجدٌ سقاها كلُّ مُنْسَجِمٍ — من الغمامِ يُحيّيها فيُحْيِيها

وبارقٌ وعُذيبٌ كُلُّ مُبتسمٍ — من الثغورِ يُجلّيها مُجَلِّيها

وإن أردْتَ تَرى وادَ العقيق فَرِدْ — دُمُوعَ عُشّاقها حمراً جَوَارِيها

نجد ابن زمرك في النص السابق قد ذكر العديد من المواضع المشرقية مثل (نجد، والحجاز، وبارق، وعذيب، ووادي العقيق) إذ اقتنص الدلالات المعنوية التي حملتها هذه الأماكن لتكون الممر الموصل أو المعبر الشعوري والفني الذي يبعث في نفسه الأمل ويمكنه من الاتصال بجذوره وتراثه، فضلاً عن أنّ الشاعر الأندلسيّ لم يستلهم التراث ويذكر الأماكن الدينية إعتباطاً وإنّما ذكرها وتشبّث بها ((نتيجة لسببين: الأول سبب نفسيّ يتمثّل بالشوق والحنين إلى تراث آبائهم وأجدادهم في المشرق. والآخر سبب فنّي ممثّل بتأكيد الذات الأندلسية وإظهار براعتها وتفوّقها الفنّي))(٩)، وبهذا فقد كانت تلك المواضع والأماكن بمنزلة الأمل والملاذ الآمن الذي تحتمي به الذّات الأندلسيّة.

أمّا الشاعر لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هــ) فلا يختلف كثيراً عن ابن زمرك في استلهامه للأماكن التراثية، إذ يقول(١٠):

لِيَ اللهُ كمْ أهْذي بنجْدٍ وحاجِرِ — وأكْني بدَعْدٍ في غَراميَ أو سُعْدى

وما هيَ إلَّا زَفْرَةٌ هَاجَهَا الجَوى — وأبْدى بِها تذْكارَ يثْرِبَ ما أبْدى

...

غَريبٌ بأقْصى الغَرْبِ طالَ اشْتِقاقُهُ — فلَوْلا تعِلّاتُ المُنى لقَضى وجْدا

يؤمِّلُ نيْلَ القُرْبِ والذّنْبُ مبْعِدٌ — وقد سدّ من طُرْق التخلّصِ ما سَدّا

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ – المجلد ٤٥ – كانون الأول السنة ٢٠٢٠

فنجد وحاجر ويثرب كلّها أماكن تراثية دينية هي في الواقع استلال من الموروث الديني القديم وذلك للاحتماء به والاتكاء عليه هروباً من الواقع المتأزّم الذي عاشه الشعراء في ذلك الوقت، ففي ظلّ الفتن والحروب التي خيّمت على غرناطة وتنكيل أعداء الإسلام بالمسلمين آنذاك، كلّ ذلك وغيره جعل الشاعر الأندلسيّ ولا سيّما في عهد بني الأحمر يبحث عن ملاذ آمن لنفسه وأملاً يتصبّر به عن تلك المآسي التي ظللت على حياته، وهذا الأمل هو حبّه للنبيّ (صلّى الله عليه وآله) وحنينه وشوقه لزيارة دياره كنجدٍ ويثرب وغيرهما.

وهكذا يغلب على هذا الشعر الإحساس الصادق والعاطفة الحارة فضلاً عن تلوّنه بنفحات غنائيّة تطلّ منها روح الشاعر فتترجم عن ذاتها وتعبّر عن خلجاتها.

وهذا يقودنا للحديث عن صورة الحنين إلى (المدن والبلدان)، تلك الصورة التي تبعث أبلغ معاني الآمال والأمنيات في ذات الشاعر الأندلسيّ، فقد واجه كثير من شعراء عهد بني الأحمر ظروفاً قاسية تعرّضوا لها وأجبرتهم على ترك أوطانهم، فعانوا من عدم التأقلم في البلاد التي رحلوا إليها، وهذا ما دفعهم إلى السعي في سبيل الرجوع، فقد أمضوا حياتهم متعلّقين بأمل العودة لأرض الوطن، وقد عكس هؤلاء الشعراء تجاربهم الذاتية في بلاد الغربة المتمثّلة في شوقهم إلى الأوطان وأملهم بالعودة إليها.

فهذا الشاعر الملك يوسف الثالث (ت٨٢٠هـ) قال متشوّقاً إلى غرناطة بعد أن أُبعِدَ عنها قسراً لظروف سياسية[١١]:

أضحَى الفؤادُ بسيفِ البينْ مجروحاً ... ومَدْمَعُ العين فوقَ الخدِّ مَسفوحا
لم يبرحِ الكلفُ المظنى ببعدِكُمُ ... كأنّه جَسَدٌ قد فارقَ الرُّوحا
...
سقياً لغرناطة واللّه ما بَرحَت ... تُلقى من البُعْدِ في قلبي تباريحا
في حالَتَيْ حذَرٍ أوْ مُرتَجى أملٍ ... عزَّ انتصاريَ ممنوعاً وممنوحا
ما زلتُ مُستفتحاً باللّهِ ثم بكم ... إلَّا وألفيتُ بابَ اللّه مفتوحا

نلمح في الأبيات شوق الشاعر وحنينه إلى موطنه غرناطة، فنراه يدعو له بالسقيا على عادة الشعراء الأوائل، وإنّ دعاء الشاعر لوطنه بالسقيا يوحي بأحلامه وآماله بالعودة إليه، إذ هو محاولة إعادة ((التوازن إلى ذات الشاعر حيث إنّ سقيا المكان تستحضر إمكانية عودة الراحلين، وفي ذلك جمع الشمل، وقد يكون من فرط حبّه لوطنه، أو موطن قومه يدعو له بالسقيا والحياة، وكأنّما يستسقي لحياة الذكريات الجميلة التي

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ – المجلد ٤٥ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٠

يحتضنها الوطن))[١٢]؛ ولهذا فإنّ الشاعر لم ييأس وظلّ متأملاً بالعودة إلى غرناطة فما زال باب الله مفتوحاً بالدّعاء فلن يردّه سبحانه.

وفي هذا المعنى أيضاً قال الشاعر ابن خاتمة(ت٧٧٠هـ)[١٣]:

يا راكبَ الفُلكِ والأفلاكُ تهواهُ	وما هَدا الجفنُ والأجفانُ مثواهُ
ها مُهجَتي فَهْيَ فُلكٌ ريحُهُ نفَسي	وبَحرُهُ فيضُ دمعي فلْتَمَطَّاهُ
هيهاتَ سِرْ تَحتَ لحظِ الحفظِ في دَعَةٍ	كان الأمينَ عليكَ الحافظَ اللهُ
نشدتُكَ اللهَ إمّا رُدتَ مُرْتَبَعاً	بسبتَةٍ يَستَميلُ النَّفْسَ مرآهُ
لا تَنسَ عهدَ مُحِبٍّ أنتَ راحَتُهُ	ورُوحُهُ وأقاصي ما تَمَنَّاهُ

يحنّ الشاعر في تلك الأبيات إلى معاهد مدينة (سبتة) متشوّقاً اليها متأملاً زيارتها، فقد أمتزج شوقه بأمله فكان الأمل عنده بمنزلة ((انتظار اللقاء بعد البعاد))[١٤]،إذ أتخذ شوقه هذا شعلةً من شعل الأمل المتوقّد في داخله، ساكباً العبرات على ذكرياته بمدينة (سبتة) التي كانت بمنزلة الأمن والراحة لنفسه.

وقد تكرر هذا المعنى أيضاً عند الشاعر لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ)، إذ قال متشوّقاً إلى غرناطة بعد أن أُجبِرَ على الخروج منها لظروف سياسيّة[١٥]:

ما للحِمى بعدَ الأحبةِ مُوحشاً	ولكم تراءى آهلاً مأنوسا
...	
حيّيتُهُ فأجابني رجعُ الصّدى	لا فرقَ بينَهما إذا ما قِيسا
...	
أتُرى بُعيدُ الدهر عهداً للصّبا	درسَتْ مَغَاني الأنسِ فيهِ دُرُوسا

بدأ ابن الخطيب الأبيات بأداة النفي (ما) نافياً أيّ شوق بعد الشوق والحنين للوطن، ثمّ يبدأ بسرد قصّته مشبّهاً وطنه بالحبيب الذي فارقه ويشتاق إليه، ثمّ أرسل له التّحيّة من مكان بعيد ولكنّه لم يجبه بل جاء الصدى والصدود هو الردّ، ثمّ نراه يأمل برجوع تلك الأيام الماضية التي جمعته بأحبابه في غرناطة، فهو يحصن ذاته بأمل العودة ويستدعيه في كلّ وقت محاولاً الخروج من غربته النفسية والمكانية.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ – المجلد ٤٥ – كانون الأول السنة ٢٠٢٠

ومن ذلك أيضاً قول أبي الحجاج يوسف بن سعيد بن حسان في حنينه إلى غرناطة[١٦]:

أحنُّ إلى غرناطةٍ كلّما هَفَتْ	نسيمُ الصِّبا تُهدي الجوى وتَشُوقُ
سقى اللهُ من غرناطةٍ كلَّ منهلٍ	بمنهلِ سُحْبٍ ماؤُهُنَّ هريقُ
ديارٌ يدورُ الحسنُ بينَ خِيامِها	وأرضٌ لها قَلبُ الشجيّ مَشوقُ
أغرناطةُ العليا بالله خبري	أ للهائمِ الباكي إليكِ طريقُ؟
وما شاقني إلا نضارة منظرٍ	وبهجةُ وادٍ للعيونِ تروقُ
تأمّلْ إذا أمّلتَ حورَ مُؤمَّلٍ	ومُدَّ من الحمراءِ عليكِ شقيقُ

لقد مثّل أبو الحجاج يوسف في أبياته الحبّ الصادق العفوي الذي يصدر عن كلّ أندلسيّ تجاه وطنه، فهو قد فتن بجمال مدينته غرناطة ولذلك نراه يكثر من الإشادة بها والإعجاب بجمالها، إذ يتجلّى الأمل لديه في وصفه لها، فهو على الرّغم من غربته عنها يتّخذ جمال طبيعتها طاقة تبعث الأمل في ذاته من خلال العودة إليها والتّمتّع بحسنها وجمالها.

ننتقل إلى صورة أخرى من صور الأمل ألا وهي الفخر والاعتزاز بالذات إذ إنّ ((الإنسان بطبيعته يحب ذاته ويتأمل نفسه كثيراً ويقارن بينه وبين غيره من الناس، لكنّه عادة لا يرى عيوبه بينما يرى كل عيوب الآخرين ومهما كان صادقاً مع نفسه، يتغلّب عليه الغرور فيؤمن بأنّه أفضل من غيره بكثير))[١٧].

ومنها صورة (الشّجاعة) التي تعدّ من محاور الفخر الذّاتيّ ووجدناها عند ثاني ملوك بني الأحمر وهو محمد الفقيه(ت٧٠١هـ) إذ يخاطب أحد وزرائه قائلاً[١٨]:

تذكّرْ عزيزَ ليالٍ مَضَتْ	وإعطاءنا المالَ بالرّاحتينِ
وقد قَصَدَتْنَا ملوكُ الجها	تِ ومالوا إلينا من العُدْوتينِ
وإذا سألَ السلمَ منا اللّعيــ	نُ فلم يحظَ إلّا بِخُفّي حُنينِ

يتباهى ابن الأحمر في النصّ السابق بخبرته وحكمته السياسية ويفتخر بآبائه وأجداده من آل نصر الذين ثبّتوا دعائم مملكة غرناطة القويّة، وقد عزز سيادتها بشجاعته وقوّة إرادته، لدرجة أنّ مملكة غرناطة قد أصبحت مقصد الملوك في الأرض وأنّ ملوك العدوتين في المغرب كانوا من أول القاصدين لها، ومن هنا كانت هذه الشجاعة تبعث في نفسه الشعور بالأمل وتعمّق في ذاته الإحساس بالشّموخ والعزّة.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ – المجلد ٤٥ – كانون الأول السنة ٢٠٢٠

ومن الصفات الذاتية الباعثة على الأمل أيضاً (الفروسيّة) ووجدناها عند الملك يوسف الثالث(ت٨٢٠هـ) إذ قال مفتخراً بها[١٩]:

فَمَنْ مُبلغُ الأقوامِ عنّي بأنَّنِي أصولُ بلا ذعرٍ وأُعطِي بلا منِّ
وإنّي أنا الموتُ الذي تحذرَونَهُ فلا هَرَبٌ يُنجِي ولا حَذَرٌ يُغني

فالملك يوسف الثالث يفتخر بقوّته وإمكانياته الحربيّة وولعه بالمعارك والقتال، فهو أراد أن يوصل رسالة مفادها بأنه الموت المؤكد للأعداء، إذ يمتلك من الشجاعة والفروسيّة ما يجعلانه يصول ويجول في ساحات المعارك بلا خوف ولا تردّد، ويتّضح من خلال ذلك صورة الفارس المقاتل الذي يظهر معجباً بفروسيّته بين أبناء جماعته، ونلحظ أيضاً كثرة استعماله للضمير المتحدث مثل (عنيّ، أنّني، أعطي، أنّي، أنا) وهذا يدل على ذاتية الأفعال وعمقها وعلى حالة الأمل التي دفعت الشاعر إلى وصف شجاعته والتغنّي بها.

ويفتخر أبو حيّان (ت٧٤٥هـ) بنفسه قائلاً[٢٠]:

تفردتُ لمّا أن جمعتُ بذاتي وأسكنْتُ لمّا أنْ بَدَتْ حركاتي
فلمْ أَرَ في الأكوانِ غيري لأنَّني أزحتُ عن الأغيارِ روحَ حياتي
وقدّستُها عن رتبةٍ لو تعيّنتْ لها دائماً دامتْ لها حسراتي
فها أنا قد أصعدتُها عن حضيضها إلى رتبةٍ تقضي لها بثباتِ

الشاعر في هذه الأبيات ينتشل نفسه من أسافل الأمور إلى معاليها ويبعث إليها الأمل الذي يتجلّى بوصفه لذاته بتدرجها من مرحلة إلى مرحلة حتى تصل إلى مستوى الثبات ليصبح لها قدر وقيمة، فهو يمدح نفسه ويقدسها بأنها قد وصلت إلى رتبة عاليةٍ ومن هنا كانت نفسه هي وحدها الباعثة على الأمل لديه.

أما الظواهر الطبيعية فتُعدّ من أبرز بواعث الأمل عند الشاعر الأندلسي، فقد عُرِفَ الشاعر الأندلسي بتفاعله وتأثره بطبيعة بلاده التي حتّمت عليه أن ينفعل بها ويؤثر فيها، فلذلك كان لها أثر كبير في ذاته الشاعرة، إذ إنَّ الشعراء الأندلسيين تطغى عليهم الذاتية فلذلك يتجاوبون مع بيئتهم وواقعهم الذي يدفعهم إلى أن ينفعلوا بظواهر الطبيعة، فهي تساعدهم على الإفصاح عن مكنونات ذواتهم الداخلية، ولهذا فهم لم يصفوها لجمالها فحسب، وإنّما وصفوها لأنها تثير في ذواتهم كوامن كثيرة، فالشعراء ليس((إلى نعت الطبيعة يريدون لكنما يريدون إلى الإفصاح عن اللواعج التي في القلوب))[٢١]، فقد وصل عشق الشاعر الأندلسي وولعه بالطبيعة إلى درجة يصعب فيها على المتلقّي معرفة إذا كان الشاعر يتحدث عن الطبيعة أم كانت الطبيعة تتحدث عنه لحد ما تغلغلت في ذاته، فهي في مخيلته ووعيه تنبض بالحياة وتفيض بالأحاسيس، بل وتشاركه آلامه وآماله في مشاركة وجدانية جميلة.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ – المجلد ٤٥ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٠

فهذا الشاعر الملك يوسف الثالث (ت٨٢٠هـ) يذوب شوقاً إلى أهله وأحبّته في مملكة غرناطة فإذا به يتشبّث (بالرّياح) ويرجوها أن تبلّغ سلامه وحنيه إلى أحبته، فيقول[٢٢]:

فإن سُدَّتِ الأبوابُ بيني وبينكم	ستقضي مناناً شَمْأَلٌ وقَبُولُ
فباللّهِ يا ريحَ الجنوب تأمَّلي	أيلقى سلامي من حبيبي قُبُولُ؟
وإن جُلتِ بالحمراءِ فاقري تحيتي	دياراً خَلَتْ مِنِّي فَهُنَّ طُلولُ
وهبّي على القصرِ الكبيرِ عليلةً	فإنَّ بهِ أهلَ الحبيبِ حُلولُ

إنّ الملك يوسف الثالث يعاني الوحدة والوحشة في سجنه، فلذلك يتحدّث مع رياح الجنوب التي لم يلق غيرها في وحدته وانقطاعه عن النّاس، ولهذا فقد أصبحت الرياح بمنزلة الأنيس الذي يبعث إليه الأمل، وهذا الأمل هو أنها تستطيع أن تصل إلى أهله وأحبته في مملكة غرناطة، فلذلك يطلب منها أن تبعث إلى محبوبته السلام وأن توصل إليها أشواقه، ثم يطلب من الرّياح أن تهبّ عليلة على قصره بغرناطة لأنّ أحبابه يقيمون هناك.

والشاعر في استعماله الصورة الاستعارية للرياح يوحي بإحساسه بالوحدة والوحشة فقد شبهها بالإنسان العاقل الذي يشكو إليه معاناته وآلامه، وفي هذه المخاطبة تشخيص للرّياح وامتزاج بها فقد أظهرها بصورة الإنسان المدرك فالتشخيص هو ((تلك الاستعارة التي يغدو معها المشبّه في صورة العاقل المدرك، فتسند له صفات العقلاء فنراه سميعاً مبصراً وناطقاً))[٢٣]، وهذا يدلّ على أنّ الرياح عنده هي الأمل الذي يتشبّث به لغدوّها ورواحها على موطن أحبابه ومكمن ملكه.

ومن الظواهر الطبيعية الباعثة على الأمل أيضاً (البرق) فقد أكثر الشعراء الأندلسيون من ذكرهم للبرق وبالذات ليلاً ((وهذا يرجّح أن يكون البرق هو بصيص الأمل الذي ينير لهم السبيل في هذه الحياة))[٢٤].

ومن الأمثلة على ذلك قصيدة ابن زمرك (ت٧٩٧هـ) التي قال فيها[٢٥]:

وإن قَنَعَ اللَّيلُ البهيمُ شموسَها	تَحطُّ عن الصّبحِ المبينِ نِقَابَا
ويضحكُ ثغرُ البَرق فيها مُبشِّراً	بنيلِ الأماني جيئةً وذَهَابَا
...	
ولا سيّما إنْ كان عصرُ بشائرٍ	يفتح للنّصرِ المؤزَّرِ بَابَا

فقد اقترن لون البرق بظهور البشرى وهذا يدل على أنّ البرق هو رمزٌ للأمل والإشراق عند الشاعر إذ أزال ظلمة لياليه وأنارها.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ – المجلد ٤٥ – تشرين الأول لسنة ٢٠٢٠

ونلحظ الشاعر قد استعار للبرق صفة (الضّحك) وتدلّ هذه الاستعارة على مدى التفاعل الحاصل بين ذات الشاعر وهذا المشهد الطبيعيّ، فلم يتّخذ ابن زمرك الطبيعة لذاتها واقفاً عند وصفها ونقل مدركاتها الخارجيّة فحسب، بل جعلها جزءاً منه فأضاف إليها مزايا وصفات إنسانية وأعطاها حواسّاً بشريّة، فهي عنده ترى وتتكلّم وتضحك أيضاً.

ويعدّ (المطر) من أبرز الظواهر الطبيعية الباعثة على الأمل عند الشاعر الأندلسيّ، فهو يوحي بمعاني الحياة والخصب والنماء والتجدّد، إذ إنّ مياه الأمطار ((تزيل حياة وتبعث حياة أخرى))[٢٦].

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن خاتمة(ت٧٧٠ه) يصف يوماً من الأيام الممطرة[٢٧]:

غيمُ سما، أم دُخانُ ندٍّ قطرٌ هَمى، أم مياهُ وردِ
وهذهِ روضةٌ تجلّتْ لناظِري أَم جنانُ خُلدِ
وقُضْبُها المُلْدُ أَمْ قُدودٌ وشَّحَها زَهْرُها بعقدِ
هاج على النّفس ما شَجاها ورُبَّ هَزْلٍ أتَى بِجِدِّ

نلحظ الشاعر قد استعمل التشبيه في وصفه للغيم والمطر، وذلك ليعبر عن مشاعره وإنفعالاته التي أثارتها قطرات الأمطار برائحتها الفواحة ،فقد أوحت إليه بمعنى الحياة والأمل بقدوم الخير، ولهذا فهو شبه قطرات الأمطار التي تسقط من السماء بمياه الورد الذي يعطر الأرض وينشر رائحة الأمل والتفاؤل.

وقد يكون (الليل) باعثاً على الأمل عند الشاعر الأندلسي، فمعروف عن الليل أنّه يطول إذا ما أحسّ الإنسان بالقلق والضّيق والحرمان، نتيجة فراق أو هجر، وقد يقصر ويمرّ سريعاً إذا كان متضمّناً للأنس والوصال، إذ إنّنا ((نشعر بطول الزمان جدّاً في حال القلق والخوف، بينما نشعر بقصره كلّ القصر في حال الأمن والسرور))[٢٨].

وقد وجدنا هذا المعنى في قصيدة ابن خاتمة(ت٧٧٠ه) التي يقول فيها[٢٩]:

يا ليلةً قَدْ كَسَاها النُّورُ سِربالا جَرَرْتُ فِيها لِبُردِ الأُنْسِ أذيالا
إذْ مَعْطَفي للصَّبا لدْنُ المهزة إنْ هَبَّتْ صَباً هبَّ، أو مالَ الصِّبا مَالا
وإذْ رياضُ المُنى تُجلَى زَواهِرُهَا قد أُلبِسَتْ من حُلى أزهارِها خالا

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ – المجلد ٤٥ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٠

وابن خاتمة هنا قلب المعادلة المتعارف عليها فالليل المعروف بالوحشة والظلمة والسواد صار مع شاعرنا نوراً وإشراقاً بدلالة قوله (يا ليلةً قد كساها النور سربالا)، فالليل عنده لم يعد رمز الوحشة والظلام، بل أصبح رمزاً للأمل والنور والإشراق.

وقد تمكّن الشاعر من خلال النّص السابق أن ينقل صورة شعريّة فائقة الجمال لهذه الليلة من ليالي الأنس، معبّراً عن متعته التي قضاها في تلك الليلة التي مرّت سريعاً كلمح البصر من خلال الصورة البلاغية، ولا سيما الاستعارات الجميلة، إذ يقول[٣٠]:

ليلٌ أعار شُعورَ الغِيدِ حُلكَتَهُ   وزرّ من وَضَحِ الوجنات
باتَتْ لِحاظُ الأماني فيهِ تَلْحَظُنَا   أمْنَاً، وأغفى رقيبُ الدَّهرِ

عبّر الشاعر من خلال الاستعارة عن آماله وأمانيه الذاتية، فحوّل الأشياء المعنوية والأمور غير العاقلة إلى أشياء حسّيّة حيّة، إذ نراه شخّص الليل وأضفى عليه صفاتٍ إنسانية وجعله يعير النساء الحسناوات شدّة سواده، فأوحت هذه الاستعارة بالعديد من الدلالات النفسية للشاعر الذي يأمل أن يزداد طول تلك الليلة لتكون خيمة يحتمي خلف سوادها مع محبوبته بعيداً عن أعين الرّقباء والوشاة.

وبهذا فقد تمكّن الشاعر من جعل صوره تنبض بالحياة وتفيض بالأمل الذي أضفى على هذه القطعة الشعرية صفة الصدق في تعامل الذات الشاعرة مع بيئتها وطبيعتها.

وقد لجأ عدد من شعراء عهد بني الأحمر إلى توظيف بعض الأزهار والنباتات في أشعارهم، فوصف النباتات والأزهار بمختلف أنواعها من الأشياء المحبّبة إلى نفسية الشاعر الأندلسي، وفي طبيعة الأندلس من الجمال ما يشجّعه على مثل هذا الولع وخصوصاً إذا كان يرافق هذه النباتات نسيم عليل ((يهب على الصحراء بعد توهّجها، فيلطف الجوّ ويبعث في النفس نشاطاً وخفّة ... فتنتعش النفس وينطلق الخيال، وتتوافد الأحلام والذكريات والأماني))[٣١].

وقد ربط هؤلاء الشعراء ما شاهدوه بالعين بما شعروا به من حبّ ووجد وحنين، ونجد ذلك عند الشاعر ابن زمرك(ت٧٩٧ه)، إذ يصف القرنفل ويقول[٣٢]:

يَقرُّ بعينِي أنْ أرى الزَّهرَ يانِعاً   وقد نَازَعَ المحبوبَ في الحُسنِ
وما أبصرتْ عَينِي كزهرِ قرنفلٍ   حكَى خدَّ مَنْ يَسْبِي الفُؤادَ وَعَرفَهُ

...

وفي جَبَلِ الفتحِ اجتنَوْهُ تَفَاؤُلاً   بفتحٍ لبابِ الوصلِ يمنحَ عطفَهُ

ونلحظ الشاعر يقارن بين جمال حبيبته وبين زهرة القرنفل التي أصبحت تنازع محبوبته في الحسن والجمال، لدرجة أنّه يرى القرنفل قد زاد على محبوبته في الجمال، وهذا يدلّ على مقدار الأثر النفسي الذي تركه هذا النبات في ذات الشاعر، فقد كان الأندلسيّون يزرعون هذا النبات؛ لأنه يبعث التفاؤل والأمل لديهم ويقرب فيما بين الأحبّة كما يرى الشاعر.

ومن ذلك أيضاً قول أبي البقاء الرّندي(ت٦٨٤ه) يصف الرّيحان[٣٣]:

وأخضرَ فُستقيِّ اللونِ غَضٌّ يَرُوقُ بِحُسْنِ مَنظَرِهِ العيونا
أغارَ على التُرنْجِ وقد حكاهُ فزادَ عَلَى اسمِهِ ألِفاً ونُونَا

فالشاعر يصف الريحان ولونه الأخضر الذي ينعش القلب ويريح العيون، فالأخضر يعد من الألوان الباعثة على الأمل عند الشاعر الأندلسيّ، فهو لون الطبيعة الذي يوحي بالخصب والنماء إذ إنّ ((له خواصّه المسكّنة والمهدّئة للجهاز العصبي فهو لون الرّبيع والتّجدّد والأمل))[٣٤].

أما فيما يخصّ الطبيعة الحيّة، فقد كانت الخيل تشكّل مصدراً مهمّاً من مصادر الأمل عند الأندلسيين ((إذ نرى الخيول قد نالت اهتمام الشاعر الأندلسيّ وحظيت بحرصه عليها وتفاخره بها وبقوتها وسرعتها ونجابتها، لما تفجر لديه من رموز ومعانٍ كثيرة يتشبّث بها ويعتزّ بتحقيقها كالبطولة والرجولة والمجد))[٣٥].

ولابن زمرك (ت٧٩٧ه) وصف جميل في الخيل، فهو كغيره من الشعراء يركّز على ألوانها ويبيّن قوّتها ويذكر صفاتها الجميلة، إذ يقول[٣٦]:

من أشهبٍ كالصّبحِ يطلع غُرّةً في مُسْتَهلِّ العسكرِ الجرّارِ
أو أدهمٍ كالليلِ إلّا أنّهُ لم يَرْضَ بالجوزاءِ حَلْيَ عِذارِ
أو أحمرٍ كالجَمْرِ يُذْكِي شُعْلَةً وقد ارتمى من بأسِهِ بِشرَارِ
أو أشقرٍ حلّى الجمالُ أديمَهُ وكساهُ من زَهْوٍ جَلالَ نُضارِ
أو اشعلٍ راق العُيونِ كأنّهُ غَلَسٌ يُخالِطُ سُدفةً بِنَهَارِ
شُهبٌ وشُقرٌ في الطرادِ كأنّها رَوْضٌ تفتّحَ عن شقيق بَهَارِ

فالشاعر رسم لفرسه صورة لونية جميلةً توحي بالأمل والقوّة ((فالأشهب من الصبح، والأدهم من الليل، والأحمر من الظهيرة، حيث تشتدّ حرارة الشمس، والأشعث من الفجر، فهي نار ونور، نار على الأعداء... ونور إذا جمعت إلى القوّة والشدّة والجمال والرّشاقة))[٣٧]، ومن ثمّ فإنّ الشاعر قد أضفى على الأبيات بهذا التمازج اللوني قيمة جمالية لونية تدلّ على أصالة هذه الخيل وتبعث الأمل في نفسه.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ – المجلد ٤٥ – كانون الأول السنة ٢٠٢٠

الخاتمة والنتائج:

١- حاول الشاعر الأندلسي في ظلّ تأزّم الظروف وخطورة الأوضاع ولا سيما في عهد بني الأحمر آخر العهود الأندلسية البحث عن أشياء تعيد الأمل إلى ذاته الضائعة، فلذلك لجأ إلى استلهام الموروث العربي القديم ولهج بذكر الأماكن النجدية والحجازية لتكون المعادل الموضوعي الذي يعيد الأمل إلى ذاته ويخفف عليه معاناته.

٢- يعدّ شعر الغربة والحنين من المواضيع التي تثير تداعيات مفهوم الأمل عند شعراء عهد بني الأحمر وذلك لأنه يرتبط بالحالة النفسية للشعراء فقد عبّروا من خلاله عن رغباتهم الذاتيّة الصادقة في العودة إلى الوطن.

٣- افتخر عدد من شعراء عهد بني الأحمر بذواتهم وما تميّزوا به من صفات شخصية زرعت الأمل في داخلهم وعمقت ثقتهم بأنفسهم.

٤- تعلّق الشعراء الأندلسيون ببيئتهم الجميلة وطبيعتهم الخلّابة ولهذا كانت أهم باعث على الأمل لديهم، إذ تفاعلوا معها لدرجة أنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ منهم فقد امتزجت بعروقهم وخالطت ذواتهم.

الهوامش:

(١) – الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية، د. عبد الواسع الحميري: ١٢.

(٢) – المصدر نفسه: ٢٧.

(٣) – المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربيّ، د. محمد عويّد الساير: ١٧٤.

(٤) – دير الملاك (دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر)، د. محسن أطيمش: ٢٢٢.

(٥) – ديوان ابن خاتمة الأنصاري: ٦٥.

(٦) – مظاهر البداوة في الشعر الأندلسي (عصر بني الأحمر أنموذجاً)، د. بشار خلف الحويجة: ١٨٥.

(٧) – الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة: ٢٤٨.

(٨) – ديوان ابن زمرك الأندلسي: ٥٠٠.

(٩) – مظاهر البداوة في الشعر الأندلسي(عصر بني الأحمر أنموذجاً): ١٨٤.

(١٠) – ديوان ابن الخطيب: ١/ ٣٥٤.

(١١) – ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث: ٢٤– ٢٥.

(١٢) – شاعرية المكان، جريدي سليم المنصوري: ٥٦.

(١٣) – ديوان ابن خاتمة الأنصاري: ١٤٤.

(١٤) – طريقة الهجرتين وباب السعادتين، للإمام شمن الدين محمد بن قيم الجوزية: ٥٧٦.

(١٥) – ديوان ابن الخطيب: ٢/ ٧٢٣.

(١٦) – الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب: ١/ ١١٧.
(١٧) – موسوعة روائع الشعر العربي(الفخر والمديح في أشعار العرب)، سراج الدين محمد: ٢/ ٥.
(١٨) – الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/ ٥٥٨.
(١٩) – ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث: ١٣٢.
(٢٠) – ديوان أبي حيّان الأندلسي: ٤٣٢.
(٢١) – المرشد إلى فهم أشعار العرب، عبد الله الطيّب: ٣/ ١٤٤.
(٢٢) – ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث: ١٩٢ – ١٩٣.
(٢٣) – الصورة الفنية في الشعر العربي(مثال ونقد)، إبراهيم عبد الرحمن الغنيم: ١٥١.
(٢٤) – اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي (شعراء المعلقات أنموذجاً)، أمل محمود عبد القادر، رسالة ماجستير: ١٢٠.
(٢٥) – ديوان ابن زمرك الأندلسي: ٢٨٢.
(٢٦) – الحياة والموت في الشعر الجاهلي، د. مصطفى عبد اللطيف جياوك: ١٥٧.
(٢٧) – ديوان ابن خاتمة الأنصاري: ١٢٢ – ١٢٣.
(٢٨) – الزمان الوجودي، د. عبد الرحمن بدوي: ١٧٤.
(٢٩) – ديوان ابن خاتمة الأنصاري: ٨٢.
(٣٠) – المصدر نفسه: ٨٢.
(٣١) – الغزل في العصر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي: ٢٥٩.
(٣٢) – ديوان ابن زمرك الأندلسي: ٤٤٣.
(٣٣) – ديوان أبي الطيب صالح بن شريف الرندي: ٢٣٧.
(٣٤) – اللون في الشعر العربي قبل الإسلام، إبراهيم محمد علي: ٢١٢.
(٣٥) – وصف الحيوان في الشعر العربي قبل الإسلام، د. حازم خضر: ٢٩.
(٣٦) – ديوان ابن زمرك الأندلسي: ٤٠٧.
(٣٧) – حياة الشعر في نهاية الأندلس، د. خنساء بو زوتية: ٤٩٤.

المصادر والمراجع:

- **الكتب:**

١– الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: محمد عبد الله عنان، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ط٢: ١٩٧٢م.
٢– الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢: ١٩٧٤م.
٣– حياة الشعر في نهاية الأندلس، د. حسناء بو زويتة الطرابلسي، دار محمد علي الحامي، تونس، ط١: ٢٠٠١م.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ – المجلد ٤٥ – تشرين الأول لسنة ٢٠٢٠

٤- الحياة والموت في الشعر الجاهلي، د. مصطفى عبد اللطيف جياووك، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط١: ٢٠١٤م.
٥- دير الملاك (دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر)، د. محسن أطيمش، دار الشؤون الثقافية، العراق، ط١.
٦- ديوان ابن خاتمة الأنصاري، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١: ١٩٩٤م.
٧- ديوان ابن زمرك الأندلسي، تحقيق: د. محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي: ط١ ١٩٩٧م.
٨- ديوان أبي حيان الأندلسي، تحقيق: د. أحمد مطلوب و د. خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط١: ١٩٦٩م.
٩- ديوان أبي الطيب صالح بن شريف الرندي، تحقيق: د. حياة قارة، دار الوفاء للنشر، الاسكندرية، ط١، ٢٠١٠م.
١٠- ديوان لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: د. محمد مفتاح، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٩م.
١١- ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث، تحقيق: د. عبد الله كنون، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢: ١٩٦٥م.
١٢- الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية، د. عبد الواسع الحميري، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط١: ١٩٩٩م.
١٣- الزمان الوجودي، د. عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، ط٣: ١٩٧٣م.
١٤- شاعرية المكان، جريدي سليم المنصوري، شركة دار العلم للطباعة والنشر، المملكة العربية السعودية، ط١: ١٩٩٢م.
١٥- الصورة الفنية في الشعر العربي (مثال ونقد)، إبراهيم عبد الرحمن الغنيم، الشركة العربية للنشر والتوزيع، ط١.
١٦- طريق الهجرتين وباب السعادتين، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيّم الجوزيّة، تحقيق: عبد الله إبراهيم الأنصاري، مطابع الدوحة الحديثة، قطر.
١٧- الغزل في العصر الجاهلي، د. أحمد محمد الحوفي، مطبعة لجنة البيان العربي، ط١.
١٨- اللون في الشعر العربي قبل الإسلام (قراءة ميثولوجية)، إبراهيم محمد علي، جروس برس، طرابلس – لبنان، ط١: ٢٠٠١م.

١٩- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب، دار الآثار الإسلامية، الكويت، ط٢: ١٩٨٩م.

٢٠- المكان في الشعر الأندلسي (من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي)، د. محمد عويد الساير الطربولي، مكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، ط١: ٢٠٠٥م.

٢١- موسوعة روائع الشعر العربي (الفخر والمديح في أشعار العرب) سراج الدين محمد، دار الرتب الجامعية، بيروت.

٢٢- وصف الحيوان في الشعر الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، د. حازم خضر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد: ١٩٨٧م.

- **الرسائل والأطاريح:**

١- اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي (شعراء المعلقات أنموذجاً)، أمل محمود عبد القادر، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس – فلسطين: ٢٠٠٣م.

- **البحوث المنشورة:**

مظاهر البداوة في الشعر الأندلسي (عصر بني الأحمر أنموذجاً)، د. بشار خلف الحويجة، مجلة جامعة الأنبار للغات والآداب، العدد العاشر، ٢٠١٤م.